

المنفجرة و بعض تحدياتها بالمغرب و الأندلس

د. عبد الله محمد حسين الزيات

قسم اللغة العربية - كلية الآداب

جامعة الفاتح - ليبيا

1 - النشأة و التسمية :

المنفجرة قصيدة في بحر المتدارك أو الخبب⁽¹⁾، وروي الجيم، قالها أبو الفضل بن النحوي التوزري، قيرواني الأصل، كان من أدباء القرن 11/5 وفقهائه بقلعة بني حماد بالجزائر، وكان فقيها صوفيا في الوقت نفسه، عُرف بميوله إلى أبي حامد الغزالي ومقارنته به، و حرصه على كتابه " الإحياء ". دخل سجلماسة ومدينة فاس، و اشتهر بمنفرجته التي عارضها وخمسها وشرحها كثير من الصلحاء و الأدباء والفقهاء، توفي سنة 513 (1119) عن عمر بلغ الثمانين⁽²⁾ .

(1) يسمى البحر بصيغتي اسم الفاعل و اسم المفعول (المتدارك) و يسمى أيضا المحدث ، انظر الخطيب التبريزي "الوافي في العروض و القوافي" تحقيق فخر الدين قباو ، مستخرج عن ط4 من نشرة دار الفكر ، دمشق 1988 ص 177 ، و إميل بديع المعجم المفصل في علم العروض و القافية وفنون الشعر ، بيروت دار الكتب العلمية ، 1991/1411 ص 116 .

(2) انظر ترجمته في : النكلمة لابن الأبار ط روخس Rojas مدريد 1887 ج 3 ص 740 ، خريدة القصر للعماد الأصفهاني (قسم شعراء المغرب و الأندلس) ط2 الدار التونسية للنشر 1986 ، ج1 ص 326 ، الذيل و النكلمة لمحمد بن عبد الملك المراكشي تحقيق محمد بن شريفة - أكاديمية المملكة المغربية - 1984 ، سفر 8 قسم 2 ص 434 - 436. توشيح الديباج و حلية الابتهاج لبدر الدين القرافي تحقيق أحمد الشتيوي - ط 1 دار المغرب الإسلامي 1403 (1983) - ص 265. نيل الابتهاج لأحمد بابا التبتكتي ص 349 - 351. شجرة النور الزكية لمحمد مخلوف دار الكتاب اللبناني بيروت، د.ت، ص 126. كتاب "الأنوار المنبلجة في بسط أسرار المنفجرة" لأبي عباس أحمد بن عبد الرحمان النفاوسي - مخطوط - أسكوريال 240 ورقة 3- 11 ، " السريرة المنزعجة لشرح القصيدة المنفجرة" للبصروي - مخطوط القرويين 1530/1 ، و الصبيحية 210 و انظره مطبوعا ضمن " القصيدة المنفجرة : شروحها ومعارضاتها وتخاميسها " لمحمد بوذينة ، منشورات محمد بوذينة تونس 1994 .

وسميت " المنفرجة " بهذا الإسم، قيل لأن ناظمها وضعها لضائقة حلت به، فأزال الله عنه تلك الضائقة⁽³⁾ بسبب هذه القصيدة التي استفتحها بالحديث النبوي " اشتدي أزمة تنفرجي " ⁽⁴⁾ فقال (المتدارك) :

اشْتَدَى أَرْمَةٌ تَنْفَرِجِي قَدْ آذَنَ لَيْلِكَ بِالْبَلَجِ
وفي رأي أبي العباس أحمد بن أبي زيد عبد الرحمان النفاوسي البجائي فإن المنفرجة سميت بذلك (لحصول الانفراج بها ووقوع الفعل الدال عليه في أولها، على طريقة قولهم :نهر جار) ⁽⁵⁾. كما عرفت جيمية ابن النحوي أيضا باسم " أم الفرج " ⁽⁶⁾ وباسم "الفرج بعد الشدة" ⁽⁷⁾.

(3) انظر علاء الدين البصري السريرة المنزعة لشرح القصيدة المنفرجة، مخطوط بالقرويين 1530/1 ورقة 2، و انظره مطبوعا ضمن القصيدة المنفرجة لمحمد بونينه ص39.

(4) في لسان الميزان لابن حجر ط1، دار الفكر ، بيروت 1988 ، 355/2 ، أن المحدث بهذا الحديث الحسين بن عبد الله بن ضميرة متروك الحديث كما ذكر ابن حنبل وغيره . وفي " الأرج في الفرج " للسيوطي دراسة و تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ، بيروت 1988/1408 ص 56، ذكر أن هذا من الأمثال المشهورة، وقد علق المحقق بأنه روى في بعض الأحيان حديثا غير أن راويه الحسين بن عبد الله بن ضميرة متروك الحديث لكذبه ، و قد أنكر عليه هذا الخبر ، و في " الفرج بعد الشدة " تحقيق عبود الشالحي ، دار صادر بيروت 1978/1398 ، 113/1 ذكر التتوخي هذا الحديث راويا له عن أبيه بكل سنده ، و قد ذكر في سنده ابن ضميرة هذا . و في " المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة ، تصحيح و تعليق عبد الله محمد الصديق ، ط1 دار الكتب العلمية بيروت 1979/1399 ، ص 59، ذكر السخاوي هذا الحديث واصفا راويه ابن أبي ضمرة بالكذب ، و كذلك أورد الحديث القضاعي في مسند الشهاب تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ، ط1 مؤسسة الرسالة بيروت 1985/1405 ، 436/1 ، و علق المحقق في تخريج الحديث بذكر حسين بن ضميرة بأنه متروك الحديث ، و أن هذا الحديث موضوع .

(5) انظر الأنوار المنبلجة في وبسط أسرار المنفرجة، الأسكوريال 240 لوحة 11.

(6) انظر محمد بن عبد الملك المراكشي الذيل والتكملة لكتابي الموصول و الصلة تحقيق محمد بن شريفة، أكاديمية المملكة المغربية، الرباط 1984، السفر 8 ق2 ص 436.

(7) انظر الأصواء البهجة في إبراز دقائق المنفرجة ضمن القصيدة المنفرجة لمحمد بونينة ص 70.

وطبقا لرأي محمد محفوظ، فإن أول منفرجة ليست لابن النحوي وإنما هي للغزالي الذي كان قد تأثر به ابن النحوي وعكف على قراءة إحيائه ونسخه⁽⁸⁾، وقد حاولت الرجوع إلى مصادر شعر الغزالي ومضآن دراسته، فلم أوفق إلى مصدر يذكر القصيدة، أو مرجع يُطمأن إليه، حتى إن محمد بوزينة الذي نشر القصيدة ناسبا إياها إلى الغزالي⁽⁹⁾ لم يذكر مصدر القصيدة ضمن ترجمة الغزالي التي أوردها مع القصيدة. وكذلك فعل محمد محفوظ حين نسب القصيدة إلى الغزالي ولم يذكر مصدره في نسبتها إليه.

ومنذ فترة وجيزة خرج كتاب بعنوان " المنفرجتان " لعبد المجيد ذياب، ضمنه المنفرجة المنسوبة إلى الغزالي ومنفرجة ابن النحوي التوزري، ويذكر ذياب أن المنفرجتين قد ورد في نسبتها خلط كثير حتى إن منفرجة ابن النحوي نسبت إلى الغزالي كما نسبت المنفرجتان إلى غيرهما ويذكر أنه قد ثبت أن إحداها لابن النحوي وأن الأخرى للغزالي⁽¹⁰⁾، وأنا مازلت على الشك في نسبة منفرجة إلى الغزالي إذ أنه لم ينسب أحد من أصحاب الفهارس والتراجم المعلومة التي اطلعت عليها أي منفرجة إلى الغزالي، كما لم أعر عليها في كتبه التي رجعت إليها. والسيد ذياب لم يفدنا بشيء في توثيق نسبة هذه القصيدة المنفرجة إلى الغزالي، واعتمد تلقائيا ورودها في بعض نسخ المخطوطات سببا كافيا لنسبتها إليه. وهو شيء لا يصح فقد يكون مصدر هذه النسخ جميعا واحدا منها غير موثوق به، خصوصا وأن أحد هذه النسخ للمخطوط يرجع إلى القرن 17/11⁽¹¹⁾ أي متأخر جدا عن عصر المؤلف المفترض.

(8) انظر تراجم المؤلفين التونسيين 23/5.

(9) القصيدة المنفرجة شروحا ومعارضاتها وتخاميسها، منشورات محمد بوزينة، سراس للنشر تونس 1994 ص 130.

(10) المنفرجتان، دار الفضيلة، القاهرة 1999 ص 5 - 6.

(11) انظر: المنفرجتان، لعبد المجيد ذياب 146.

2 - ظاهرة أدبية :

واعتباراً من التاريخ الذي وضع فيه ابن النحوي منفرجته دخل هذا المصطلح الأدب العربي ، فسميت به كل قصيدة التزمت بحر المتدارك وروي الجيم، ووضعت نصب أعينها تلك المعاني الزهدية الصوفية التي أوردها ابن النحوي في قصيدته، ولذلك فقد كانت القصيدة المنفرجة لابن النحوي من القصائد التي حظيت باهتمام لا بأس به في الأدب العربي، مثل قصائد أخرى سيارة، كلامية العرب للشنفرى، ولامية العجم للطغرائي، و تائية ابن الفارض، وبانت سعاد لكعب ابن زهير، و مقصورات ابن دريد، وابن هشام، وحازم القرطاجني، وبردة البوصيري. فقد كان الاهتمام بهذه القصائد في الأدب العربي بأشكال مختلفة، من شرح وتخمين ومعارضة وغيرها، وقد كانت منفرجة ابن النحوي معروفة ومشهورة حتى قال محمد بن عبد الملك المراكشي عنها: (وهي قصيدة مشهورة، كثيرة الوجود بأيدي الناس، ولم يزالوا يتواصلون بحفظها، و يتجافون عما حواه معظمها من حوشي لفظها) (12).

وقد بلغ عدد شروح المنفرجة أكثر من ثلاثة وثلاثين شرحاً، من بينها شرحان في اللغة التركية⁽¹³⁾، وشرح آخر لم يذكره بوزينة وهو لتاج الدين عبد الوهاب السبكي⁽¹⁴⁾. وأهم شرح لمنفرجة ابن النحوي - فيما علمت - هو الذي وضعه أبو

(12) الذيل و التكملة س 8 ق 2 ص 436.

(13) انظر القصيدة المنفرجة لمحمد بوزينة ص 29-33، كما لم يذكر بوزينة بين هذه الشروحات شرحا يبدو أنه مهم و هو شرح تاج الدين عبد الوهاب بن علي السبكي (ت 1370 / 771). انظر فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التتبعي لسيدي عمر بن علي، لندن مؤسسة الفرقان 1997/1417 : 218/1 .

(14) انظر سيدي عمر بن علي فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التتبعي، مؤسسة العرفان لندن 1997، 218/1.

العباس أحمد بن أبي زيد عبد الرحمان النقاوسي البجائي (ت 1407/810) (15)
 المعنون بـ " الأنوار المنبلجة في بسط أسرار المنفجرة " والذي مازال مخطوطاً
 حتى الآن (16)، ويشير إليه السخاوي حين يقول : (وشرحها بعض المغاربة
 في مجلد حافل) (17)، ويؤكد أنه يعني الأنوار المنبلجة قوله بعد ذلك : (ولخص
 منه غير واحد من العصريين شرحاً) ؛ ذلك أن الأنوار المنبلجة نجده أصلاً
 لتلخيصين انتشرا بالمغرب والمشرق، وهما تلخيص الأنصاري (18) وتلخيص

(15) انظر ترجمته في معجم المؤلفين لكحالة ط 10 مؤسسة الرسالة بيروت 1414/1993، ج 1 ص
 157، و أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور المطبعة الملكية الرباط 1990، 288/4 -
 290.

(16) الأسكوريال 240، وتوجد نسخة منه في خزانة ابن يوسف بمراكش، بمجموع تحت الرقم
 349/11، انظر فهرس مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش امحمد المنوني (مرقون على الآلة
 الكاتبة بالخزانة الحسنية بالرباط) ص 57.

(17) شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمان، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث
 المشتهرة على الألسنة ص 59، وقد أشار إلى الشرح أيضاً محمد بن شريفة (الذيل و التكملة ص 8 ق
 2 ص 436 بالهامش) ذاكراً أنه أشير إلى هذا الشرح في كشف الظنون.

(18) انظر شرح أبي زكرياء الأنصاري المدعو بـ " الأضواء البهجة في إبراز دقائق المنفجرة "
 ضمن كتاب " القصيدة المنفجرة: شروحها ومعارضاتها و تخاميسها " لمحمد بوزينة ص 69 - 102،
 وقد ذكر بوزينة أنه نشره عن مخطوط ينتمي إلى دار الكتب الوطنية بتونس رقم 4059 (عبلية) ، و
 في فهرس مخطوطات حسن حسني عبد الوهاب ص 170 ذكر هذا الكتاب ضمن مخطوطاتها . توجد
 نسخة لهذا الكتاب أيضاً ضمن مجموع بقسم مخطوطات مكتبة جامعة قاريوس بمدينة بنغازي بلبياس،
 ونسخة أخرى ضمن مخطوطات دار الكتب بالمنصورة بالعراق (مجلة معهد المخطوطات ج 24
 ص 288) . و في خزانة مخطوطات جامع ابن يوسف بمراكش توجد نسخة من هذا المخطوط ضمن
 المجموع الذي يحمل الرقم 456 و يقع شرح أبي زكرياء في الورقات 178 - 192. انظر فهرس
 مخطوطات خزانة ابن يوسف بمراكش ص 57.

البصري (19)، والمؤلفان من أهل القرن 15/9، وقد ضمن محمد بوزينة التلخيص في كتابه " القصيدة المنفرجة؛ شروحها، ومعارضاتها، وتخاميسها " .

وقد عرف الأدب العربي قبل هذه الآونة التي ظهرت فيها منفردة ابن النحوي، وما ترتب عنها من شرح، و تخميس، ومعارضة، مصطلح التخميس، الذي يعني أن يأتي شاعر معين إلى قصيدة، فيجعل قبل كل بيت فيها ثلاثة أشطر يضعها هو من إنشائه، ويكوّن شطرا بيت القصيدة الخمسة مع الثلاثة أشطر السابقة عليه وحدة شعرية تسمى البيت (20)، وقد كان حظ القصيدة المنفرجة لابن النحوي من هذا الفن كثيرا، نذكر من بينه :

(19) انظر تلخيص علاء الدين البصري دمشقي ، المدعو بـ " السريرة المنزعة لشرح القصيدة المنفرجة " القرويين 1530/1، و نسخة أخرى منه مختلفة قليلا بالخزانة الصبيحية بسلا، 295/3، و في " فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون " ذكر أنه توجد نسختان من مخطوطات هذا التلخيص ضمن المكتبة المذكورة (فهرس مخطوطات مكتبة عبد الله كنون ص 147 ، 319) وانظره مطبوعا أيضا ضمن " القصيدة المنفرجة شروحها ومعارضاتها و تخاميسها " لمحمد بوزينة ص 39 – 68 ، وقد أشار محمد بوزينة إلى أماكن وجود نسخ من هذا الكتاب (انظر ص 30) . وقد كان للأستاذ محمد بن عبد العزيز الدباغ العذر عندما نسب هذا التلخيص إلى مجهول؛ ذلك لأن نسخة القرويين التي اعتمد عليها لم يكن فيها ما يشير إلى اسم المختصر الذي ذكر في افتتاح مقدمة نسخة الصبيحية بقوله: (قال علي بن يوسف بن علي البصري الشافعي ...) ، كما ذكر اسم هذا المختصر في النسخة التي اعتمد عليها بوزينة في طبعه هذا المختصر ضمن كتابه المذكور آنفا . وقد سمى الأستاذ الدباغ هذا التلخيص شرحا ، و لا أدري علام اعتمد ، وقد جاء في مقدمة هذا التلخيص – بعد ذكره لشرح النقاوسي البجائي – قوله مشيرا إلى ذلك الشرح : (سرى في خلدي أن أنتزع من الشرح المذكور وغيره ما يوضح معنى أبيات القصيدة) انظر نسخة القرويين ورقة 2 .

وقد كتب الأستاذ الدباغ حول هذا التلخيص مقالات بعنوان " شرح منفردة ابن النحوي لمؤلف مجهول " ، وذلك تحت زاوية " نصوص و هوامش " وهو برنامج أعده الدباغ لإذاعة فاس الجهوية بتاريخ 4، 11، 17، 27 / 7 / 1990، و 3، 10 / 8 / 1990 ، وقد تفضل الأستاذ مشكورا فأعطاني تلك الحلقات مرقونة على الآلة الكاتبة .

(20) انظر إميل بديع المعجم المفصل في العروض و القافية ص 188 .

1- تخميس أبي محمد بن نعيم الحضرمي القرطبي الأصل، التونسي النشأة⁽²¹⁾ (ت 1238 / 636).

2- تخميس من وضع ابن الشباط التوزري (1221/618 - 1285/684) الذي سماه عجالة الروية في تخميس القصيدة النحوية⁽²²⁾.

3- الشموس الضحوية والبدور الضحوية في تخميس القصيدة النحوية لأبي بكر بن خميس⁽²³⁾.

4- تخميس لتاج الدين السبكي⁽²⁴⁾. وغير هذا من التخميس التي عرفتھا منفردة ابن النحوي⁽²⁵⁾.

أما المعارضة فهي تعني لغة: المقابلة؛ قال ابن منظور: (عارض الشيء بالشيء معارضة: قابله، وعارضت كتابي بكتابه أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني، وفي الحديث: إن جبريل عليه السلام كان يعارضه القرآن في كل سنة مرة، وإنه عارضه العام مرتين، أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن؛ من المعارضة: المقابلة)⁽²⁶⁾.

(21) انظر مخطوط الأسكوريال 1393 ورقات 181 - 184 ، 196 - 199 ، وانظر أيضًا النص مطبوعا في القصيدة المنفرجة لمحمد بوزينة ص 127 - 133 . كما ذكرت نسخ أخرى لهذا التخميس موجودة بالخزانة الصبيحية بسلا ، تحت الأرقام 282/1 ، 56/14 ، انظر فهرس مخطوطات المكتبة الصبيحية لمحمد حجي وآخرين 278 - 279 .

(22) التوزري هذا هو صاحب كتاب " صلة السمط و سمة المرط " أي سمط ابن الأبار، انظر تخميس ابن الشباط في الأسكوريال مجموع 1393 ورقات 191 - 195 ، و انظره مطبوعا في " القصيدة المنفرجة " لمحمد بوزينه ص 134 - 139 .

(23) الأسكوريال 1393 ورقات 185 - 189 .

(24) انظره ضمن مجموع بقسم مخطوطات مكتبة جامعة قاريونس بينغازي - ليبيا .

(25) وقد بلغ عدد التخميس التي ذكرها محمد بوزينة غير تخميس أبي بكر بن خميس و السبكي، 8 تخميسات.

(26) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، مادة - ع ر ض - ج 7 ص 167.

أما المعارضة في الاصطلاح الأدبي، أو في سياق المعارضات الشعرية فهي تعني: أن يتابع شاعر ما، أبيات قصيدة شاعر آخر فيعارضها بأن يأتي بشبيه لها أو مناقض في المعنى أو اللفظ، أو فيهما معاً، مع التزام بروي تلك القصيدة السابقة وبحرها في قصيدته التي يعارض بها (27). ويلاحظ هنا التوافق بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي في المتابعة والمقابلة، وقد يسمى ذلك الفن من الشعر أيضاً مناقضة، كما اشتهرت بهذا الإسم المعارضات التي كانت بين جرير والفرزدق ومن لفّ لفهما.

3 - تداعيات مغربية أندلسية :

لقد كان معارضو قصيدة ابن النحوي أندلسيين ومغاربة، وغيرهم (28)، فمن المغاربة:

1 - أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن أبي القاسم التجاني الذي عارضها بقصيدة مطلعها (29) (المتدارك):

لَا بُدَّ لَضِيْقٍ مِّنْ فَرَجٍ بِخَوَاطِرِ عِلْمِكَ لَا تَهْجُ
2- الفقيه الأديب التازي محمد بن عبد الرحيم بن يجبش (أويحش) المتوفى سنة 1514/920، الذي عارضها بقصيدة مطلعها (30) (المتدارك):

(27) حول معنى المعارضة انظر " المعجم المفصل في علم العروض و القافية " لإميل بديع يعقوب ص 412، 262/3. و انظر:

Schippers, Muarada, Encyclopedie de L'Islam, Nouvelle Edition, 7, Paris, 1993, pp. 262/3, Emilio García Gómez, El Escándalo de las jarchas en Oxford, Boletín de la Real Academia de la Historia, 188, Madrid, 1991, 1, pp. 1 - 104.

(28) ذكر محمد بونينة ستاً من معارضات منفرجة ابن النحوي لم يكن من بينها معارضة أبي القاسم ابن رضوان ولا معارضة أبي عبد الله المستحي ولا معارضة أبي جعفر بن رضوان.

(29) انظر المقاصد الحسنة للسخاوي ص 59.

(30) انظر ابن القاضي: درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد أبو النور الأحمدى، دار التراث والمكتبة العتيقة، تونس 1972، 149/2، 150، و الأسكوريال مجموع 143 و رقعات 145-146، والقصيدة المنفرجة شروحها ومعارضاتها وتخاميسها ص 107، 108، و ابن يجبش وهو محمد بن عبد الرحيم بن يجبش التازي، فقيه أديب ناظم، عروضي نحوي ت 920 / 1514، وقد روى ابن القاضي معارضة ابن يجبش عن ولده وتلميذه محمد بن محمد بن يجبش التازي فيما يذكر محمد حجي (انظر الحركة الفكرية في عهد السعديين دار المغرب، الرباط 1978، 435/2).

اشْتَدَى أَرْمَةً تَنْفَرَجِي قَدْ أَبْدَلَ ضَيْقَكَ بِالْفَرَجِ
وقد عرف التبادل الثقافي المستمر بين المغرب والأندلس، بتأثر المغرب وتأثير الأندلس ، وقد شذت هذه الحالة في قضية المنفرجة، فقد عارض قصيدة ابن النحوي - التوزري، التونسي الأصل والنشأة، التلمساني والفاسي الترحل والتنقل، ذي النزعة المتعصبة ضد الأندلسيين (31) - بعض أدباء الأندلس وفقهائها، الذين نجد من بينهم أبا القاسم بن رضوان؛ صاحب كتاب الشهب اللامعة في السياسة النافعة، وكان مطلع قصيدته (32) (المتدارك):

اشْتَدَى أَرْمَةً تَنْفَرَجِي مَا بَعْدَ الْعُسْرِ سِوَى الْفَرَجِ
وهي القصيدة التي قام حفيد أبي القاسم أبو عبد الله محمد بن رضوان الذي عاش في العصر السعدي بشرحها في كتابه " الشواهد الواضحة النهج على القصيدة المبشرة بالفرج ". والمعارضة الأندلسية الثانية - التي نجدها حتى الآن - للمنفرجة، هي قصيدة أبي عبد الله المستحيي (33) التي مطلعها (34) (المتدارك):

اشْتَدَى أَرْمَةً تَنْفَرَجِي فَالشَّدَّةُ تُؤْنِنُ بِالْفَرَجِ

(31) انظر المقتضب من تحفة القانم للبلغيتي ص8، 9، فقد أورد هنالك أبياتا لابن البراء التجيبي الجزيري الأندلسي يرد فيها على ابن النحوي لأنه يذم خط أهل الأندلس، وأبياتا أخرى للشاعر نفسه يرد فيها على ابن النحوي لأنه ذم أبا عمر بن عبد البر .

(32) انظر الشواهد الواضحة النهج على القصيدة المبشرة بالفرج لأبي عبدالله محمد بن يوسف بن رضوان مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط رقم 315، ص 67 ، طبقا للتزقيم الذي أضيف إلى المخطوط.

(33) هو الفقيه الكاتب أبو عبدالله محمد بن علي المستحيي المالقي كان أدبيا لكنه على ضعف في أدبه كما عبر عن ذلك ابن الخطيب بقوله " يعاني الأكدب المنحط "، كتب لبعض حكام بني مرين و توفي في صحراء المغرب أثناء إحدى سفاراته عنهم. انظر الكتيبة الكامنة لابن الخطيب تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت 1983 ص 210.

(34) انظر عبد الحميد الهامة " ظاهرة المنفرجات الأندلسية " دراسات أندلسية عدد 15 (رمضان 1416 - يناير 1996) ص 64 ، 65. و انظر أيضا أطروحته للدكتوراه التي تحمل عنوان: القصيدة الأندلسية في القرن الثامن الهجري ، كلية الآداب ، تطوان 1994 التي نشرتها كلية الدعوة الإسلامية بطرابلس في عام 1996.

ومن الأندلسيين الذين عارضوا منفرجة ابن النحوي، أو قالوا منفرجات على شاكلتها أبو جعفر بن رضوان⁽³⁵⁾، بل إن أبا جعفر هذا كان قد أنشأ معارضتين فيما أخبرنا به أبو عبدالله محمد بن رضوان صاحب الشواهد ناقلا عن أبي القاسم⁽³⁶⁾، ولم تصل إلينا هاتان المعارضتان، كغيرهما من المعارضات الكثيرة التي يروي لنا

(35) هو أبو جعفر أحمد بن رضوان بن عبد العظيم، كما عند ابن الخطيب، و بزيادة الأوسي والأغرناطي عند ابن الأحمر، وهو عند ابن حجر : أحمد بن رضوان بن عبد العظيم بن خالد بن محمد بن خالد بن عبد العظيم الجذامي الغرناطي، و من خلال النسيب الذين ذكرنا له : الجذامي والأوسي يتضح أنه ليس من أسرة المؤلف التي تنتسب إلى الخزرج. كان شاعرا مبدعا مطبوعا غزير الإنتاج، اكتسب صيتا أنبيا في عصره، كما كان يتكسب بشعره، كان صديقا لأبي الوليد ابن الأحمر، تبادل المراسلة الشعرية مع أبي العباس الجزنائي، كان ميسور الحال يتعاطى الفلاحة، و علم الكيمياء و قد مات مبكرا، إذ لم يتجاوز عمره الأربعين إلا بعام واحد، و كانت وفاته عام 1361/ 763. انظر ترجمته و أخباره في أوصاف الناس لابن الخطيب (تحقيق محمد كمال شبانه، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية و دولة الإمارات العربية المتحدة، المغرب 1397 - 1977، ص 139)، و ربحانة الكتاب لابن الخطيب أيضا (تحقيق محمد عبدالله عنان، ط 1 - مكتبة الخانجي - القاهرة 1400 - 1980، ج 2 ص 424، 425)، الإفادات و الإنشادات للشاطبي، تحقيق محمد أبو الأجفان، (ط2 مؤسسة الرسالة، بيروت 1406/1986 ص 98، 104، 106، 108، 119، 130، 164)، و نثير فرائد الجمان لأبي الوليد إسماعيل بن الأحمر (تحقيق محمد رضوان الداية- دار الثقافة - بيروت/لبنان 1967، ص 323 - 324)، و الدرر الكامنة في أعيان المائة الثانية لابن حجر العسقلاني ط2 بإعانة وزارة المعارف بالهند، 1392 - 1972، ج1 ص 152، 153)، و أعلام المغرب العربي لعبد الوهاب بن منصور (ط1/ الرباط 1399 - 1979، ج4 ص 344، 345)، و الألب المغربي لمحمد بن تاوويت و محمد الصادق عفيفي (مكتبة المدرسة، و دار الكتاب اللبناني، بيروت / لبنان - 1960، ص 247)، و القصيدة الأندلسية خلال القرن الثامن الهجري لعبد الحميد عبدالله الهرامة كلية الآداب. تطوان - المغرب 1414/1415 - 1993 / 1994، ص 336.

(36) انظر الشواهد ص 66.

صاحب الشواهد عن جده أبي القاسم أن جماعة من الغرناطيين قد نظموها ⁽³⁷⁾، وربما كانت هذه الكثرة هي التي أدت بالدكتور عبد الحميد الهرامة إلى أن يعتبر موضوع المنفرجات ظاهرة أدبية في أندلس القرن 14/8 ⁽³⁸⁾.

4 - سبب نظم أبي القاسم للمنفرجة :

كتاب الشواهد لحفيده أبي عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف بن رضوان هو الوثيقة الوحيدة التي تعرفنا بسبب نظم هذه المنفرجة؛ حيث تذكر أن أبا القاسم بن رضوان كان ضمن شعراء غرناطة الكثر الذين نظموا منفرجات بمناسبة كارثة هزيمة المسلمين في معركة طريف EL Salado سنة 1341/740؛ فقد قال صاحب الشواهد متحدثاً عن جده أبي القاسم: (كان نظمه رحمه الله تعالى لهذه القصيدة في مقره ببر الأندلس حيث وقعت بين المسلمين والنصارى وقائع عظمت بها الخطب واشتدت الكرب، وذلك إثر كائنة طريف ⁽³⁹⁾).

وقد ذكر ⁽⁴⁰⁾ ابن رضوان الحفيد أيضاً أن جده أبا القاسم كان يهدف من وراء هذه القصيدة إلى حصول البركة، والتوسل بالقصيدة إلى الله تعالى في إتاحة الفرج، وما ذلك الفرج الذي يرجوه ابن رضوان وسواه من الأندلسيين إلا أن يجعل لهم الله مخرجاً من هذه الهزائم التي حاقت بهم، والتي ستحقيق بهم فيما بعد لتتسبب في ذهاب وطنهم الأندلسي إلى الأبد.

5- معركة طريف :

كان الفونسو الحادي عشر Alfonso XI يتطلع إلى غزو مملكة غرناطة وهي المملكة الإسلامية الصغيرة والضعيفة المنعزلة عن بقية العالم الإسلامي، ويطربص بها الدوائر؛ وقد عرف عنه شدة عداوته للمسلمين وشراسته ضدهم؛ فقد قال عنه ابن

(37) الشواهد ص 66.

(38) انظره في المقال المحدد أعلاه .

(39) الشواهد ص 65 ، 66 .

(40) الشواهد ص 66 .

الخطيب الذي عاصره: (كان طاغية مرهوبا، وملكا مجدودا، وعظمت به إلى المسلمين النكاية)⁽⁴¹⁾، وقد وصفه هويثي ميرندا بما يوحى بتعطشه لسفك الدماء، وذلك عندما قال عنه: (لم يستطع أن يعيش يوما دون حرب)⁽⁴²⁾، كما قال عنه: (وهو الملك القشتالي الوحيد بين فرناند الثالث Ferdenando III والملكين الكاتوليكيين الذي أعطى الدفعة اللازمة إلى حروب الإسترداد)⁽⁴³⁾، فما كان من ملك غرناطة يوسف الأول - وحال جاره وعدوه النصراني بالأوصاف التي ذكرنا - إلا أن يفعل كما فعل سابقوه في مثل هذه الظروف، وهو الاستجداء بالقوة الإسلامية المتواجدة في العدو المغربية، وكانت يومها القوة المرينية التي استجاب سلطانها أبو الحسن المريني إلى نداء إخوانه المستضعفين؛ فكان الجهاد الذي أعلنه العاهلان : الأندلسي والمغربي، أو هكذا رآته إيبيريا المسيحية، فاتحدت قوات قشتالة، وأراجون، والبرتغال، وسارت تحت راية واحدة لملاقات القوات المغربية، وبارك البابا ذلك الاتحاد للقوات الإيبيرية، وهزمت القوات المغربية، وقتل قائدها الأمير أبو مالك بن أبي حسن المريني؛ فقرر هذا الأخير السير بنفسه إلى الأندلس ، وكان أن جهز جيشاً عظيماً شاركت فيه كل الجيوش من شمال إفريقيا : من المغرب الأقصى، وتلمسان، وتونس، وطرابلس⁽⁴⁴⁾، وكان مجموعها حوالي 60 ألفاً⁽⁴⁵⁾، واجتاز أبو الحسن بقواته بحر الزقاق، ونزل بسهل

(41) الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب تحقيق محمد عبدالله عنان، ط2، مكتبة الخانجي القاهرة 1973/1393 ، 331/4 .
(42) انظر :

Ambrosio Huici Miranda : Las grandes batallas de la Reconquista durante las ikvasiones . africanas , Madrid , Consejo , Superior de Investigaciones Científicas ,1995 p.332

(43) ن.م، الصفحة نفسها. انظر كذلك، د. جمعة شيخة: الفتن والحروب ج2/314-319.

(44) ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شابانا ، وزارة الثقافة ، ودار الكتاب العربي القاهرة ، ص30 ، و الناصري: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى ، دار الكتاب ، الدار البيضاء 1954 ، 3/135.

(45) المقري: نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس دار الثقافة بيروت 1988/1408 ، 14/5 ، الناصري الاستقصا 3/136 .

طريف، ونهض إليه سلطان غرناطة؛ يوسف الأول في جيوشه، ليلتقي الجيشان في مكان قرب نهر يدعى نهر سالادو Salado، وهو نهر صغير يصب في المحيط الأطلنطي. وكانت المسيحية قد جمعت حشودها من كل شبه الجزيرة الإيبيرية، كما انضم إليها فرسان الجمعيات الدينية المسيحية من أغلب الدول الأوروبية بدعم حكومات تلك الدول، وبدعم مادي ومعنوي من البابا في رومة⁽⁴⁶⁾، كما انضم إلى هذه الحشود ملك البرتغال بتجهيزات بحرية هائلة وكذلك الجنويون⁽⁴⁷⁾. ونشبت بين الجيش الإسلامي والجيش المسيحي المعركة التي تدعى بطريف في المصادر العربية، وبـ Salado de Tarifa في المصادر المسيحية⁽⁴⁸⁾.

وكان الفونسو الحادي عشر هو القائد للجيوش المسيحية، والتقى الجيشان في جمادى الأولى 741 أكتوبر 1340⁽⁴⁹⁾، فجرت معركة كبيرة سالت فيها دماء هائلة، خصوصا في الجانب الإسلامي الذي مني بهزيمة عظيمة؛ حيث سقطت قوات السلطان أبي الحسن الخاصة في يد المسيحيين، و قتل أفراد تلك القوات جميعاً بوحشية ضارية؛ بمن فيهم من حريم السلطان وأولاده⁽⁵⁰⁾ وهرب أبو الحسن ناجيا بنفسه إلى المضيق ثم إلى المغرب، كما رجع السلطان يوسف الأول إلى غرناطة.

(46) انظر: Huici Miranda Ambrosio Las grandes batallas de la Reconquista ص 346.

(47) ن.م، ص 340.

(48) انظر: Gran Diccionario Enciclopédico Durvan , Emegé ind. gaf, Barcelona,

1992, 12, p4630.

(49) انظر: Luis Seco de lucena Paredes " La fecha de la batallas del Salado "

AL-Andalus, 19/1954 p.p228-231.

وقد علق Huici Miranda Ambrosio في كتابه Las grandes batallas de la reconquista ص 362 على مقال paredes السابق حول تاريخ المعركة بأنه نقاش أو جدال ليس له مبرر حقيقي في رأيه.

(50) انظر الناصري: الاستقصا 136/3، 137.

وكانت جيوش المسلمين بين أندلسيين وأفارقة 75 ألف مقاتل⁽⁵¹⁾، استشهد عدد كثير منهم، وأسر عدد كبير أيضاً⁽⁵²⁾، ومنى باقيهم بهزيمة كانت عظيمة الأثر على المسلمين في المغرب والأندلس، لم يشهدوا مثلها منذ وقعة العقاب Los naves de Tolosa زمن الموحدين⁽⁵³⁾؛ إذ قلما فُجع الإسلام بمثلها كما قال الناصري⁽⁵⁴⁾، لا سيما وأنها كادت تمكن قشتالة من الاستيلاء على كل الأندلس⁽⁵⁵⁾. كما اعتبرت معركة طريف علامة اندثار وبداية تراجع للمرينيين باعتبارهم قوة كبيرة ومهمة، وكانت - على رأي هويثي ميراندا - آخر غزو إفريقي لشبه جزيرة إيبيريا، وتركت الأندلس لمصيرها. وقد زاد من خطورة الوضع في تلك الفترة الصراع بين أفراد البيت الحاكم الذي فتح مع غيره من المشاكل والظروف - فيما بعد - الطريق أمام الملكين الكاتوليكيين لاحتلال غرناطة⁽⁵⁶⁾.

وقد رأى بعض المؤرخين أن هذه المعركة قد وضعت حدًا للدور المزدوج الذي كانت تلعبه مملكة غرناطة، حيث كانت تتحالف مع الملوك المسيحيين في شبه جزيرة

(51) انظر: Miguél Cruz Hernández : El Islam de AL – Andalus,

Madrid, Instituto de Cooperación con. el Mundo Árabe, 1992,p326.

(52) ذكر Huici Miranda Ambrosio في كتابه Las grandes batallas de la Reconquista ص 387 أن عدد شهداء المسلمين وأسراهم كان سبعة وخمسين ألفاً وثلاثمائة (57300).

(53) انظر معركة طريف في : العبر لابن خلدون منشورات مؤسسة الأعلمي؛ بيروت 1971/1391، 261/7 - 264 ونفح الطيب للمقري؛ 14/5، 15، ونهاية الأندلس لمحمد عبدالله عنان، ط.4، مكتبة الخانجي، القاهرة 1408 / 1987؛ 126 - 128، و la Intervención de los Benimerines en la península ibérica لمؤلفه Miguél Angel Rodriguez ص 259 - 266.

(54) الاستقصا؛ 137/3.

(55) انظر محمد رزوق " التدخل المريني بالأندلس " دراسات أندلسية ع 17 (رمضان 1417 / جانفي 1997) ص 40.

(56) انظر Las grandes batallas de la reconquista لـ Huici Miranda Ambrosio ص 363.

إيبيريا عندما تحس بوطأة نفوذ المرينيين عليها ، وتتحالف مع الآخرين حين ترى الخطر المسيحي قد زاد اشتداد وطأته عليها⁽⁵⁷⁾.

واستشهد في هذه المعركة كثير من العلماء والأعيان⁽⁵⁸⁾، كان من بينهم ابن جزي الغرناطي الفقيه الحافظ المدرس، المشارك في فنون العربية والأصول والقرآن والحديث والتفسير، وخطيب مسجد غرناطة الجامع⁽⁵⁹⁾.

وكان من الذين استشهدوا في معركة طريف والد ابن الخطيب وأخوه⁽⁶⁰⁾، وقد رثاهما ابن الخطيب مع شهداء معركة طريف ، ورثاهم غيره من الشعراء كان من بينهم أبو محمد بن المربع⁽⁶¹⁾، الذي تألم للكائنة، وجعل رثاء أبي ابن الخطيب وأخيه مدخلا للقصيدة التي مطلعها⁽⁶²⁾ (كامل) :

خَطْبُ أَلَمْ فَأَذْهَبَ الْأَخَ وَالْأَبَا رَغْمًا لَأَنْفٍ شَاءَ ذَلِكَ أَوْ أَبَى

فأجابه ابن الخطيب بقصيدة منها⁽⁶³⁾ (كامل) :

لَا كَانَ يَوْمُكَ يَا طَرِيفُ فَطَالَ مَا أَطْلَعْتَ لِأَمَالٍ بَرَقًا خُلْبَا
وَرَمَيْتَ دِينَ اللَّهِ مِنْكَ بِفَادِحٍ عَمَّ الْبَسِيطَةَ مَشْرِقًا أَوْ مَغْرِبًا

(57) انظر : Luis Seco de " Panorama político del Islam granadino durante el s XV لـ

Lucena parades في مجلة Miscelánea de Estudios Árabes y Hebraicos المجلد 9 (1960) ج1ص13.

(58) نفح الطيب 14/5.

(59) ابن فرحون المالكي، النباج في أعيان المذهب، بيروت، دار الكتب العلمية، ص 295، 296.

(60) ابن الخطيب: كناسة الدكان، ص 34، المقرئ: النفح 12/5.

(61) هو عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي، ولد وعاش بمدينة بلش. وكان شاعرا هجاء مسترفدا، وناثرا تأتي له القول في النثر الفني، توفي في طاعون وقع ببلده عام 750 (الإحاطة لابن الخطيب

3/421-432)، د. جمعة شيخة: الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي ج 2/314-319.

(62) ديوان ابن الخطيب؛ تحقيق محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء 1409/1989، 106/1، 107.

(63) ديوان ابن الخطيب 107/1.

كما قال ابن الخطيب شعرا رائيًا فيه أباه وأخاه وذاكرًا فيه هزيمة المسلمين، متألمًا لها، من بينه قصيدة مطلعها⁽⁶⁴⁾ (الطويل) :

سِهَامُ الْمَنَايَا لَا تَطِيشُ وَلَا تُخْطِي وَلِلدَّهْرِ كَفُّ تَسْتَرِدُّ الَّذِي تُعْطِي
وغير ابن الخطيب من الذين ذكروا هذا اليوم⁽⁶⁵⁾ وقالوا فيه شعراء، وتآلموا له كثيرون؛ ذلك لأنه كان يومًا حدثت فيه للمسلمين داهية (من الدواهي المعضلة الداء)⁽⁶⁶⁾، وينس الأنديسيون من يومها من تدخل مغربي لصالحهم، بل إن التدخل الإسباني في الشمال الإفريقي هو الذي أصبح سائدًا بعد هذا التاريخ⁽⁶⁷⁾.

و كانت كائنة طريف عظيمة على المسلمين، لذا ظهرت فيها بعض الخرافات التي لم تخل من أهداف سياسية؛ مثل قولهم : إن الأمير النصري الأول ظهر شخصيًا في هذه المعركة، ورئي بفاسه ومعوله الذي أصاب كثيرًا من الأعداء⁽⁶⁸⁾، كما ظهرت أساطير حول هذه المعركة في الجانب المسيحي⁽⁶⁹⁾.

و لا نستغرب أن يكتب كثير من العلماء وينتجوا أنواعا من أدب الزهد الذي حاولوا فيه الهروب من الواقع المأسوي بعد هذه الكارثة التي حلت بمسلمي الأندلس، وفقدان الأمل في استنقاذها والاحتفاظ بما بقي من مملكة غرناطة حتى تلك الفترة. وقد كتب كثير من الفقهاء في هذا الأدب كما توحى بعض الإشارات التاريخية؛ من بينها ما ذكره شارح إحدى القصائد التي قيلت في هذا الغرض، وهو ابن رضوان الحفيد مؤلف

(64) انظر النفع 18/5.

(65) كان أيضا لهذه المعركة وتلك الهزيمة انعكاس في الأدب الشعبي " الملحون "، انظر مقالاً — Maria Forneas Jose بعنوان « Romances fronterizos y poesía árabe » ضمن كتاب Estudios nazaries ص 193 – 223، ص 201، 202.

(66) انظر النفع ج 5 ص 15.

(67) انظر Los españoles y el norte de África لمؤلفيه Mercedes García Arenal و Miguél Ángel ص 23.

(68) انظر (España musulmana (Siglos VIII – XV) لمؤلفته Rachel Arié ص 58.

(69) انظر Las grandes batallas de la Reconquista ص 382.

كتاب الشواهد حين قال في مقدمة كتابه الذي شرح به قصيدة جده الأعلى أبي القاسم ابن رضوان، التي قيلت في هذا الغرض: (كان نظم رحمه الله هذه القصيدة ببر الأندلس حين وقعت بين المسلمين والنصارى وقائع عظمت بها الكرب واشتدت الخطب، وذلك إثر كائنة طريف تبركاً وتيمناً وتوسلاً إلى الله تعالى في إتاحة الفرج، وكان نظم على ذلك المنحى جماعة من طلبة العلم) (70).

من هذا يتضح أمامنا الباعث على قول قصيدة أبي القاسم بن رضوان التي شرحها حفيده أبو عبدالله محمد بن يوسف بن رضوان في كتابه الشواهد، وقد كانت هذه القصيدة معارضة لقصيدة عرفت في مجال الزهد كثيراً، وهي قصيدة ابن النحوي التي قالها أيضاً في اشتداد أزمة حصلت له، وكارثة حلت به، غير أن الفارق في الباعثين كبير جداً؛ حيث إن الأزمة عند ابن النحوي كانت خاصة به، أما في حال ابن رضوان فقد كانت أزمة أمة، وكارثة مجتمع يرى أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من الهلاك النهائي، خصوصاً بعد تلك المعركة التي أفقدته كل أمل في نجدة خارجية تأتيه من خارج شبه الجزيرة؛ حيث فُصمت مملكة غرناطة عن المغرب العربي، وباقي العالم الإسلامي (71).

6 - مكانة منفرجة أبي القاسم بين المنفرجات:

إن ما ذكره (72) حفيد ابن رضوان؛ أبو عبد الله محمد صاحب الشواهد يؤكد أن منفرجة جده أبي القاسم؛ التي قام كتابه على شرحها، من الأهمية بمكان، حتى إن أشهر علماء العصر قد رواها عن قائلها أبي القاسم؛ ومنهم ابن مرزوق الجد، وأبو عبد الله السطّي، وأبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى، وكلهم كانوا من قضاة العصر، وفقهائه وعلمائه في غرناطة بني الأحمر وفاس بني مرين، بل إن عدداً من غير هؤلاء قد روى هذه المنفرجة، مما يعني أن القصيدة كانت على مستوى أدبي رفيع، وأهمية تاريخية جعلت هؤلاء العلماء يهتمون بها، وقد شهد شيخ أبي القاسم أبو جعفر

(70) الشواهد ص 65، 66.

(71) انظر: Rodríguez — La Intervención de los benimerines en la península ibérica

Miguél Ángel Manzano ص 266.

(72) الشواهد ص 66.

ابن رضوان بتفوق منفرجة أبي القاسم على غيرها، مع أن أبا جعفر نفسه قد وضع منفرجتين في الموضوع، وقد طلب إليه أبو القاسم أن ينقد منفرجته هذه فأجابته أبو جعفر نظماً فقال (المتدارك) :

بَرَزْتَ عَلَى الشُّعْرَاءِ بِمَا أَبْرَزْتَ مِنَ النَّظْمِ الْبَهْجِ
وَمَحَا اسْتِشْرَاقُ آيَاتِكَ مَا أَبْدَوْا فِيهِ مِنَ السُّرُجِ
فَلْتَقَدِّمْ حَامِلِ رَأْيَتِهِ لَكَ طَبْعٌ بِالتَّقْدِيمِ حَاجٍ (73)

فهذه شهادة ناقد وضع قصيدتين في الموضوع نفسه، وشهد له ابن الخطيب بالملكة الشعرية والإبداع الأدبي⁽⁷⁴⁾، رغم أنه كان فقيهاً عدلاً شهيراً⁽⁷⁵⁾. ومما يدل أيضاً على أهمية منفرجة أبي القاسم واهتمام الأدباء بها ما أفادنا به حفيده أبو عبدالله محمد بن يوسف بن رضوان الذي أشار إلى أنه كان لمنفرجة أبي القاسم - في عصر مؤلف الشواهد - أكثر من نسخة رآها؛ وذلك عندما كان يشرح البيت (المتدارك) :

إِنَّ الْأَحْكَامَ تُخَالِفُ مَا يَجْرِي فِي الظَّنِّ فَلَا تَهْجِ
إِذْ قَالَ مُشِيرًا إِلَى كَلِمَةِ الْأَحْكَامِ: (وفي نسخة الأقدار)⁽⁷⁶⁾، فتعدد النسخ يدل على كثرة طلب القصيدة والرغبة في اقتنائها⁽⁷⁷⁾.

ونحن نرى أن قيمة منفرجة أبي القاسم تكمن في الناحية التاريخية؛ حيث نعرف من خلالها؛ ومن خلال ظروف تأليفها الحالة العامة التي كانت تسود نفسية الأدباء التي هي مقياس لنفسية المجتمع، وهي نفسية كان يسودها الإحباط والشعور بالهزيمة النهائية بسبب نكبة طريف، كما تكمن قيمة منفرجة أبي القاسم في كونها المنفرجة

(73) الشواهد ص 66.

(74) انظر أوصاف الناس ص 139.

(75) الشواهد 66.

(76) الشواهد 92.

(77) كذلك وجود المنفرجة منسوخة وحدها معلقا عليها يفيد انتشارها واهتمام الناس بها. (انظر المخطوط بخزانة جامع ابن يوسف بمرآش 4/ 456).

الأطول التي عرفناها لشعراء القرن 14/8 في الأندلس، وهم من الشعراء الذين قال العديد منهم معارضات لمنفرجة ابن النحوي، ولم نعرف عما قالوه شيئاً سوى ما ذكره حفيد أبي القاسم في مقدمة شرحه لمنفرجة جده، أو ما ذكره عبد الحميد الهرامة عن منفرجة أبي عبد الله محمد بن علي الأنصاري المعروف بالمستحيي⁽⁷⁸⁾.

أما من الناحية الفنية فإننا لا نرى كبير أهمية لمنفرجة أبي القاسم ابن رضوان؛ فرغم كون ناظمها شاعراً لا يقل أهمية عن كثير من شعراء عصره حتى إنه وُصف بأنه كان مجيداً في حوك الشعر⁽⁷⁹⁾، إلا أنه كان قد وضعها في أول عهده بنظم الشعر كما روى حفيده⁽⁸⁰⁾. وكان معروفاً عن أبي القاسم أنه بدأ نظم الشعر مبكراً⁽⁸¹⁾، فقد حوت المنفرجة حوشياً بين ثناياها مثل القصيدة المعارضة لابن النحوي، وقد أشار إلى ذلك محمد بن عبد الملك المراكشي⁽⁸²⁾، كما حوت تكراراً ودوراناً حول المعاني نفسها في كثير من الأحيان، وقد يكون هذا التكرار وذلك الدوران انعكاساً لما ورد في القصيدة المعارضة لابن النحوي، إلا أن القصيدة المعارضة من الأهمية بمكان في معرفة مراحل تطور شاعرية أبي القاسم، إضافة إلى الأهمية التاريخية؛ وقد ذكر ابن الخطيب معاناة أبي القاسم للشعر في حديثه، كما وصف شعره بالتناسب في الوضع⁽⁸³⁾، وبالمقارنة بين هذه المنفرجة والشعر الذي ذكره له ابن الخطيب⁽⁸⁴⁾، حين وصف شعره بالتناسب يتضح الفارق في المستوى الفني بينهما، لكن رغم كل ذلك نستطيع أن نصف منفرجة أبي القاسم ضمن شعره الذي وصفه ابن الخطيب بكونه

(78) دراسات أندلسية عدد 15 (رمضان 1416 - جانفي 1996) ص 58 - 60، 64، 65.

(79) انظر التعريف بابن خلدون، ضمن كتاب العبر ج 7 / ص 386.

(80) إذ كان أبو القاسم قد قال متحدثاً عن منفرجته: (وكانت من أول نظمي). انظر الشواهد 66.

(81) الإحاطة 445/3.

(82) في الذيل والتكملة سفر 8، ق 2، ص 436.

(83) الإحاطة 444/3.

(84) ن.م، 445/3 - 451.

(سهل المأخذ)⁽⁸⁵⁾. وبالتالي فإن منفردة ابن رضوان يمكن أن تُصنّف في أدب الوعظ والتصوف، ولا أدل على ذلك - بالإضافة إلى مضامين أخرى كثيرة - من استعمال صيغ أفعال الأمر والنهي التي أكثر منها في القصيدة إكثاراً بيننا حتى إنها زادت على الخمسين صيغة؛ بمعنى أنه يندر ألا نجد في كل بيت من الأبيات صيغة من صيغ الطلب والنهي (افعل أولاً تفعل)، وهي سمة خطابية مباشرة، أوضح ما تكون في أدب الزهد والوعظ.

(85) ن.م، 444/3.